حرية التعبير دائماً...

مع تهاشير عودة العافية إلى لبنان، يُفعم الأمل قلوب المثقّفين والكتّاب اللبنانيين أن يستردّوا دورهم ويضطلعوا بمسؤوليتهم في مسيرة الحياة الثقافية العربية التي كان الإبداع اللبناني حادياً من حُداتها وعنواناً من عناوينها البارزة.

والحقّ أن الحرب اللبنانية، على ما جَّرت من كوارث ودمَّرت من مؤسسات، لم تستطع أن تقضي على النشاط الثقافي والإنتاج الأدبي وإن أضعفتهما. فقد ظلّ لبنان مركزاً أساسياً من مراكز النشر والصحافة والإعلام، ولم تستطع أية عاصمة عربية أن تسلب بيروت دورها في إنتاج الكتاب ونشره في كل مكان من الوطن العربي، وبقيت عاصمتنا ملجأ للحرّية الفكرية، بالرغم من الضربات القاتلة التي وُجّهت لهذه الحرية التي استشهد من أجلها طائفة من خيرة المثقفين والمبدعين الذين كانوا أعضاء في اتحاد الكتّاب اللبنانيين.

واتحاد الكتّاب اللبنانيين الذي كان لي شرف تأسيسه مع عدد من الأدباء عام ١٩٦٨ يستعدّ الآن لعقد المؤتمر الثاني للكتّاب اللبنانيين، مستهدفاً في الدرجة الأولى تفعيل الثقافة واستعادة الدور الذي تستحقّه في تطوير المجتمع اللبناني على قاعدة الديموقراطية والحرّية.

ولسنا نقرِّر إلّا واقعاً إذا كرَّرنا أن الهمّ المركزي لاتحاد الكتّاب اللبنانيين هو الدفاع عن حرية التفكير والتعبير، ليس للأديب اللبناني وحده، وإنما لجميع الأدباء العرب على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم، والوقوف في وجه الكبت والقمع اللذين تمارسهما السلطات والأنظمة عليهم.

ونعتقد أن الأدباء العرب لا يزالون يذكرون المعركة التي خاضها وفد اتحاد الكتّاب اللبنانيين هنا في تونس، منذ ثمانية عشر عاماً، في مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد عام ١٩٧٣، والذي حاول فيه المرحوم يوسف السباعي والسيد محمد المزالي الذي كان رئيساً لذلك المؤتمر، أن يمنعا وفدنا من الدفاع عن ما لا يقلّ عن مئة وعشرين أديباً وصحفياً مصرياً كان محظوراً عليهم الكتابة والإذاعة وأيّ نشاط أدبي من قبل نظام السادات آنذاك، وكان أن اضطرّ الوفد اللبناني إلى الانسحاب من المؤتمر ومتابعة المعركة من بيروت طوال أشهر.

ولعلّ الفرصة مناسبة لنتساءل اليوم، ونحن هنا في تونس لمناسبة مؤتمر آخر للكتّاب العرب: ما حال حريّة التعبير بعد انقضاء هذه الأعوام الطوال؟

إنه ليؤسفنا حقّاً أن نؤكّد أن هذه الحرية لا تزال تشكو القمع والتضييق، بل لعلّ أجهزة الرقابة في معظم الأنظمة العربية أشدّ شراسة اليوم مما كانت سابقاً في ممارسة الإرهاب على إنتاج المفكّرين والأدباء لأسباب مختلفة تتخذها ذرائع لحماية أخلاق القرّاء ومعتقداتهم وما إليها من الدعاوى.

والأدباء العرب مدعوون اليوم، أكثر من أي يوم مضى، إلى مزيد من التصدّي لهذه الأجهزة القمعية التي تتوسَّل الرقابة المسبّقة على الكتب والمجلّات، وتصادر في كثير من الأحيان ما كانت قد سمحت بتداوله. ولا يقلّ خطراً في ذلك محاولات تدجين الأقلام بالإغراء المادّي السخيّ الذي يشترط خفية أو علناً الانصياع لسياسة هذه الأنظمة والانصراف عن موضوعات معيَّنة ينبغي أن يتجنّبها الكاتب، وهذا ما أدّى في السنوات الأخيرة إلى انحسار الإبداع الأدبي إجمالاً، لتهافت كثير من الأقلام وراء البترودولار...

ونحن الآن أمام هجمة الرياح الأميركية الشرسة وما تحمله دوّاماتها من بذور الدعايات الخبيثة والادّعاءات الكاذبة بصدد الدفاع عن الحريات وحقوق الشعوب، وهي ليست مدفوعة إلا بمصالحها الخاصّة في تسخير الثروات العربية وحماية العدوان الصهيوني على حقوق الشعب الفلسطيني وخنق الطاقات العربية والقدرات العسكرية للحيلولة دون إقامة التوازن الستراتيجي مع قوى العدوان والاغتصاب.

ومن المؤلم حقّاً أن يصمت اليوم كثير من الأصوات القومية الشريفة عن إدانة هذه الهجمة الأميركية، متناسية أن المصدر الحقيقي للشرور والكوارث التي تعانيها الأمة العربية، إنما هو سياسة الاستعمار الجديد الذي يعمل جاهداً لنهب الثروة العربية وتحويل هذه الثروة إلى الدعم العسكري اللامحدود للكيان الصهيوني.

أفلا يحقّ لنا، أيها الأصدقاء، أن ندعو مرة أخرى أدباء الأمة العربية ومفكّريها إلى التحلّي بالجرأة والشجاعة وقوفاً في وجه الاستسلام وراء السياسات الأجنبية المخادعة، وإلى تكوين الجبهة الثقافية القومية في وجه التخاذل والارتماء في أحضان قوى الاستعمار والبغي والصهيونية؟

إن جماهير الأمة العربية تُدين اليوم، كما لم تُدن من قبل، الاحتلالات الأجنبية لكثير من الأراضي العربية، وتدعو إلى حلٍّ عربيّ عربيّ لأزمة الخليج، وسيكون شرفاً عظيماً لهذه الجبهة الثقافية القومية أن تعمل لتجنيد هذه الجماهير لخوض معركة المصير الكبرى(*).

سهيل ادريس

(★) الكلمة التي ألقاها الدكتور سهيل ادريس باسم الوفد اللبناني في مؤتمر الأدباء العرب السابع عشر بتونس.